مجلة الحقيقة للعلوم الاجتماعية والانسانية
EL - HAKIKA (the Truth)
Journal for Social and Human Sciences

المجلد: 21 / العدد: 04 / السنة: 2022 ص ص:143-157

المذهب الأشعري والسلطة السياسية تبادل التأثير والتأثر

The Ash'ari Doctrine and Political Power

عكاشة راجع[1*]، يوسي هواري[2]

1جامعة وهران1، (الجزائر)، ra.okkacha@yahoo.fr

2 جامعة وهران1، (الجزائر)، youssi.lahouari@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022/04/15 تاريخ القبول: 2022/11/20 تاريخ النشر: 2022/12/30

ملخص:

يعتبر الأشاعرة والماتريدية وأهل الحديث عصب أهل السنة والجماعة، في مواجهة فرق الضلالة ونحل الباطل، وإن نبتت اليوم نابتة خبيثة ويدعمها قرار مأجور ونسبة زور– للسلف زعموا_ تروم بالبهتان لمز الأشاعرة وغمز الماتريدية بأنهم ليسوا من أهل السنة على الرغم من أنهم مادة الإسلام وأكثر العلماء الأعلام. وليس يخفى أن العامل السياسي كان له دور هام في نشأة وتطور وتبلور المذاهب الإسلامية العقدية، وبخصوص المذهب الأشعري فقد أثرت فيه السياسة وتأثرت به، حاربته حينا وناصرته أحيانا, وكان للعامل السياسي دور في انحصاره وانتشاره

الكلمات المفتاحية: المذهب الأشعري؛ السياسة؛ التأويل؛ أهل السنة؛ التأثير.

Abstract*:*

The Ash'ari, the Maturudians, and the people of hadith are the nerve of the Sunnis and the community, in the face of the delusion teams, and if a malicious plant grows today, supported by a false percentage and a paid political decision - the Salafis - they accuse the Ash'ari and Matudrians of not being from the Sunnis, even though they are the most people of Islam and the most important scholars among them.

It is no secret to anyone that the political factor played an important role in the emergence, development and crystallization of Islamic doctrines, and with regard to the Ash'ari school of thought, politics influenced it and was affected by it.

Keywords Ash'ari school; politics; interpretation; Sunnis**.**

*المؤلف المرسل

مقدمة:

يعتبر الأشاعرة والماتريدية وأهل الحديث عصب أهل السنة والجماعة، في مواجهة فرق الضلالة ونحل الباطل، وإن نبتت اليوم نابتة خبيثة لها مقاصد خسيسة ويدعمها قرار مأجور ونسبة زور– للسلف زعموا– تروم بالبهتان لمز الأشاعرة وغمز الماتريدية بأنهم ليسوا من أهل السنة على الرغم من أنهم مادة الإسلام وأكثر العلماء الأعلام؛ فالقاصي والداني والعالم والعامي يعرف أن كل الحنفية ماتريدية، وأن جل المالكية والشافعية وبعض الحنابلة أشاعرة، وأن هذين المذهبين الاعتقاديين يغطيان أغلب ربوع العالم الإسلامي شرقا وغربا، والخلافات الفروعية البسيطة بينهما تكاد تجعل منهما مذهبا واحدا, وإن كانت وجهة النظر متعددة.

وقد كثر الحديث في دوائر المختصين والمهتمين على أن مذهب الأشاعرة انتشر بالسلطان لا بالبرهان، وبقسوة الدولة لا بقوة الحجة، وهذه دعوى تُعوزها الدقة وقد يتلقفها أهل الأهواء للمز الأشعرية كمذهب أن قوامه الفرض لا القناعة ومتابعة الهوى لا الدليل. مع أن تأثير السياسي في العقدي وتأثره به ليس حكرا على الأشاعرة بل يشمل جميع المذاهب العقدية والفرق الكلامية، والأشاعرة كما أفادوا من السلطة في حقب تاريخية، اكتووا بنارها في حقب أخرى، فأيامهم معها دُول.

تروم هذه الورقة البحثية بيان العلاقة بين المذهب الأشعري والسلطة السياسية وتبادل التأثير والتأثر بينهما في مراحل تاريخية مختلفة، ومناطق جغرافيا متباينة، من دولة السلاجقة في المشرق إلى دولة الموحدين في المغرب.

أولا : دور العامل السياسي في ظهور الفرق العقدية

ليس يخفى أن العامل السياسي يعتبر من أهم عوامل نشأة الفرق الكلامية وإذكاء الخلاف بينها، بل لعل الموقف من مسألة الإمامة ومن أحق بها بعد النبي صلى الله عليه وسلم، والموقف من الصحابة الذين شجر بينهم الخلاف بعد مقتل عثمان عليه الرضوان، وصولا لاقتتالهم في الجمل وصفين يعتبر حجر الزاوية في ظهور أحزاب وفرق، كانت في بداياتها سياسية، وما لبثت أن تحول السياسي إلى عقدي والسلوكي إلى فكري، فـ"أعظم خلاف بين الأمة خلاف الإمامة، إذ ما سل سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سل على الإمامة في كل زمان"

(**الشهرستاني، ج1،ص22**)، ليتشظى المسلمون إلى فرق ونحل، ولتخرج نابتة الشيعة والخوارج والمعتزلة والمرجئة... على اختلاف فرقها من الجماعة الأم، والتي هي أهل السنة والجماعة.

" إننا نعلم أن المسلمين بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم قد اختلفوا سياسيا، ثم بقي الاختلاف كامنا حتى مقتل الخليفة الثالث وبموته انفجرت الخلافات السياسية وفي اثرها تكونت المذاهب. إن الشيعة بفرقها المختلفة .. إنما نشأت وتطورت نتيجة لأصل سياسي، ..و استخدمت كل حجة فلسفية من قبل ومن بعد لتدعيم أصل سياسي، ونحن نعلم أن الخوارج بطوائفها المتعددة إنما نشأت عن عامل سياسي، والمعتزلة في نشأتها سياسية وفي تطورها كذلك... ويفسر الإرجاء نفس التفسير...، وأغلب ما حدث في تاريخ المسلمين من غزوات حيوية فكرية أو ثروات حيوية فكرية–إنما انقلبت إلى ثورات سياسية: الكيسانية وخليفتها القرامطة, الشيعة الاسماعيلية وخليفتها الدولة الفاطمية، الزيدية وخليفتها دول الزيود في المغرب وفارس واليمن.." (**علي سامي النشار،ج1،ص 225**).

إنه تبادل التأثير والتأثر بين العقيدة والسياسة، مبدأ المذهب سياسي ثم تحول إلى عقدي ثم ما لبث أن عاد لسيرته السياسية الأولى، إذ أقيمت عليه دول تنصره وتنشره وتحارب من يكفره، ولقد كان لاعتناق الخلفاء وتبني الدول لآراء المذاهب العقدية أبلغ الأثر في ذيوعها على اعتبار أن بيدها قوة الدولة وهيبة السلطان وإن ضعفت حجتها أو أعوزها البرهان، لأن الناس من جهة على "دين ملوكهم" يمالؤهم فيرون رأيهم ويقتفون أثرهم ويتبنون فكرهم، قال ابن الفضل:" ما كنت أعلم أن طباع الرعية تجري على عادة ملوكها حتى رأيت الناس في أيام الوليد بن عبد الملك، وقد اشتغلوا بزراعة الكروم والبساتين، واهتموا ببناء الدور وعمارة القصور، فقد كان الرجل يلقى الرجل فيسأله كم دارا عندك؟و كم غرفة بنيت؟ ورأيتهم في زمان سليمان بن عبد الملك قد اهتموا بكثرة الأكل وطيب الطعام... ورأيتهم في أيام عمر بن عبد العزيز قد اشتغلوا بالعبادة وتفرغوا لتلاوة القرآن وأعمال الخيرات وإعطاء الصدقات فصار الرجل يلقى الرجل فيسأله : كم صليت البارحة؟ وكم تحفظ من القرآن؟و كم وردك؟ فعلمت أن في كل زمان تقتدي الرعية بالسلطان يعملون بعمله ويقتدون بأفعاله من القبيح والجميل". (**أبو حامد الغزالي، 1996م،ص8**).

هذا من جهة التأثر الطوعي، ومن جهة أخرى كثير من الخلفاء وأمراء الدول رأوا أن رأيهم العقدي ومذهبهم الفكري هو رأي الدولة الرسمي إذ هو أس بنائها ووعصب قيامها، في بقائه استمرارها وفي فنائه اضمحلالها, إذ هو رافدها الفكري والفلسفي، لذلك جعلوا منه عقيدة رسمية يدعمون معتنقيه ويحملون الخاصة والعامة عليه، ويحاربون مناوئيه بالفكر تارة وبالبطش والتنكيل أخرى، فمن لم يتبناه طوعا ورغبة حُمل عليه كرها ورهبة، اعتناقه علامة ولاء وعدم اعتقاده أمارة مروق، ولا أدل على ذلك من فتنة خلق القرآن بيد المعتزلة وخلفاء بني العباس الذين اعتنقوا مذهبهم(المأمون، والمعتصم، والواثق) وتواصوا على نصرته وتأييده، لكن الأيام دول إذ دوام الحال من المحال، المعتزلة دالت دولتهم ودارت الدائرة عليهم ليذوقوا وبال أمرهم ويشربوا من كأس ظلم طالما سقوه مخالفيهم (**ينظر:أحمد أمين, 2009م،ج3، ص134_170**). فيأتي غيرهم يفعل مثلما فعلوا، وهكذا كانت للمذاهب العقدية مراحل انتصار وانكسار، وحالات انتشار وانحصار، وأزمان حضور وضمور، وبالتالي نحن أمام ظاهرة عامة لتأثير السياسي في العقدي وتأثره به ولسنا أمام عيب يلمز به الأشاعرة دون غيرهم . بل لعل الأشاعرة كانوا في الجملة أرحم بمخالفيهم من سواهم يصدق فيهم قول الشاعر:

ملكنا فكان العفو منا سجية *** فلما ملكتم سال بالدم ابطح
وحللتم قتل الاسارى وطالما *** غدونا عن الاسرى نعفو ونصفح
وحسبكم هذا التفاوت بيننا *** وكل انـاء بالذي فيه ينضح.

المطلب الأول: المذهب الأشعري والسلطة السياسية في المشرق العربي.

الفرع الأول: : دولة السلاجقة والمذهب الأشعري.

ظهر السلاجقة في مرحلة تاريخية حاسمة، تكالبت فيها فرق الضلالة على عاصمة الخلافة الإسلامية بغداد، وسيطرت فيها الحركات الشيعية الباطنية من إماميه وإسماعيلية وقرامطة وحشاشين... على مساحات واسعة من العالم الإسلامي وعلى مراكز حضارية مؤثرة، قال ابن تيمية :" .. وكانت الرافضة والقرامطة – علماؤها وأمراؤها- قد استظهرت في أوائل الدولة السلجوقية حتى غلبت على الشام والعراق وأخرجت الخليفة القائم ببغداد إلى تكريت وحبسوه بها في فتنة البساسيري المشهورة فجاءت بعد ذلك السلجوقية حتى هزموهم وفتحوا الشام والعراق وقهروهم بخرسان وحجروهم بمصر، وكان في وقتهم من الوزراء مثل " نظام الملك"، ومن

العلماء مثل:" أبي المعالي الجويني" فصاروا بما يقيمونه من السنة ويردونه من بدعة هؤلاء ونحوهم من المكانة عند الأمة بحسب ذلك". **(ابن تيمية، ج4، ص18)**.

وقد أسهم البويهيون(البويهيون ما إن دخلوا بغداد حتى بدؤا سياستهم العنصرية اتجاه أهل السنة والجماعة، وقد ابتدعوا في الدين الحنيف بدعاً ما انزل الله من سلطان، ومن هذه البدع الكثيرة لطم الخدود وشق الجيوب وإعلان الحداد ولبس السواد والبكاء والنياح في ذكرى مقتل سيدنا الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، في العاشر من محرم من عام 352 هـ أمر معز الدولة بن بويه أن تغلق الأسواق وأن يلبس النساء (المسوح) من الشعر وأن يخرجن في الأسواق حاسرات عن وجوهن ناشرات شعورهن يلطمن وجهن ينحن على الحسين، وفي عشرة من ذي الحجة أمر معز الدولة بني بويه بإظهار الزينة في بغداد وأن تفتح الأسواق في الليل كما في الأعياد وأن تضرب الطبول والبوقات وأن تشعل النيران في أبواب الأمراء فرحاً بعيد الغدير (**غدير خم**))، الشيعة في نشر التشيع، وقد كانوا أول الأمر زيدية، ثم انقلبوا بعد سيطرتهم على العراق عن مذهبهم الزيدي، وتبنوا المذهب الإمامي تماهيا مع التشيع ألإمامي العراقي، ثم انقلبوا أعداء للخلافة والتسنن (محمد بن مختار الشنقيطي، أثر الحروب الصليبية على العلاقات السنية **الشيعية، 2016م،ص 110.**)، فقاموا بانشاء المدارس ونشر الدعاة ورعاية خزانات الكتب الشيعية والعناية بالمشاهد...فكانت رعاية رسمية من الدولة للمذهب الشيعي، على غرار الفاطميين الذين أقاموا خلافة مترامية الأطراف وراموا إسقاط الخلافة العباسية ونشر (المذهب الإسماعيلي الباطني فأنشؤوا الأزهر عام 378هـ، ليكون مركز الدعاية لمذهبهم ونشر أفكارهم المنحرفة. ولما" أصبح السلاجقة عام 447هـ، أكبر قوة في العالم الإسلامي خاصة بعد أن فرضوا سيطرتهم على بلاد فارس وتغلبوا على الغزنويين والبويهيين، وتوغلوا داخل أراضي الدولة البيزنطية واصطدموا بجيش الروم وبذلك أعطوا دفعة قوية للجهاد ضد الروم الذين عاثوا فسادا أيام البويهيين، ساندوا الخلافة العباسية في بغداد ونصروا مذهبها السني بعد أن أوشكت على الانهيار بسبب النفوذ البويهي الشيعي في إيران والعراق، والنفوذ العبيدي الفاطمني في مصر والشام، فقضى السلاجقة على النفوذ البويهي تماما وتصدوا للخلافة الفاطمية (**الصلابي، دولة السلاجقة، 2006م، ص47**).

ولأن عقائد العامة تغلغل إليها التشيع أيام بني بويه، إذ كان مذهب دولتهم الرسمي

(**ينظر:علي حسن الغضبان، 2014م، ص125–192**)، وبما أن فتنة الفاطميين الإسماعيلية متعاظمة في مصر والشام، ومذهبهم الباطني الكفري ترعاه دولتهم وتُعنى بنشره وإقامة مراكز للدعاية له، رأى السلاجقة أن جهاد السيف والسنان يُعوزه جهاد القلم والبيان، وأن الفكر يُجابَه بالفكر، فانبروا إلى تأسيس المدارس والاستعانة بالعلماء العاملين، ولم يكن في أهل السنة من هو أهل لهذه المهمة الصعبة الكؤود إلا متكلمي السنة: الأشاعرة، وكان غالبيتهم شافعية، فوحّد الجهود وأرسى الدعائم وشمّر عن ساعد الجد، وشحذ الهمم والعزائم الوزير الجليل نظام الملك، قال عنه الحافظ الذهبي:" الوزير الكبير، نظام الملك، قوام الدين، أبو علي الحسن بن علي ابن إسحاق الطوسي، عاقل، سائس، خبير، سعيد، متدين، محتشم، عامر المجلس بالقراء والفقهاء.أنشأ المدرسة الكبرى ببغداد، وأخرى بنيسابور، وأخرى بطوس، ورغب في العلم، وأدر على الطلبة الصلات، وأملى الحديث، وبعد صيته.وكان أبوه من دهاقين بيهق، فنشأ وقرأ نحوا، وتعانى الكتابة والديوان، وخدم بغزنة، وتنقلت به الأحوال إلى أن وزر للسلطان ألب آرسلان، ثم لابنه ملكشاه، فدبر ممالكه على أتم ما ينبغي، وخفف المظالم، ورفق بالرعايا، وبنى الوقوف، وهاجرت الكبار إلى جنابه، وازدادت رفعته، واستمر عشرين سنة.سمع من القشيري، وأبي مسلم بن مهربزد، وأبي حامد الأزهري.روى عنه علي بن طراد الزينبي، ونصر بن نصر العكبري، وجماعة.وكان فيه خير وتقوى، وميل إلى الصالحين، وخضوع لموعظتهم، يعجبه من يبين له عيوب نفسه، فينكسر ويبكي.مولده في سنة ثمان وأربع مائة، وقتل صائما في رمضان، أتاه باطني في هيئة صوفي يناوله قصة، فأخذها منه، فضربه بالسكين في فؤاده، فتلف، وقتلوا قاتله، وذلك ليلة جمعة سنة خمس وثمانين وأربع مائة، بقرب نهاوند، وكان آخر قوله: لا تقتلوا قاتلي، قد عفوت، لا إله إلا الله.قال ابن خلكان: قد دخل نظام الملك على المقتدي بالله، فأجلسه، وقال له: يا حسن، رضي الله عنك، كرضى أمير المؤمنين عنك. وللنظام سيرة طويلة في "تاريخ ابن النجار"، وكان شافعيا أشعريا"(**الذهبي، 2006م، ج14، ص144–145**.)

وبفضل جهوده الجبارة وسعيه الحثيث وتدبيره المحكم تأسست المدارس النظّامية، في بغداد ونيسابور وهراة وأصفهان والبصرة ومرو، وبآمل طبرستان، والموصل، فكانت بحق فتحا علميا لا يقل شأنه بل يربوا على الفتح العسكري حصّنت عقائد الناس ودفعت عنها الشبه وقذفت بحق السنة باطل الباطنية فزهق، وكانت جهدا منظما برعاية رسمية قاومت التشيع على اختلاف

أطيافه، وانتصرت للسنة من جهة، وأسهمت في نشر المذهب الأشعري في الأصول والمذهب الشافعي في الفروع من جهة أخرى.

كان اهتمام المدرسة النظامية قد ركّز على مادتين أساسيتين هما: أصول العقيدة على المذهب الأشعري، والفقه على المذهب الشافعي، ولقد كانت موقوفة على أصحاب الشافعي أصلا وفرعا، وفي هذه الفترة كان كل الشافعية أشاعرة، وكانت الدراسة بها وحتى التدريس مهوى أفئدة طلبة العلم والعلماء، إذ كانت بمثابة جامعات مرموقة القدر عظيمة الشأن تشرئب لها هامات ذوي الهمم من كل الأصقاع والبقاع، ولعمري ما أحوجنا اليوم إلى نظام ملك ومدارس نظامية نحصّن بها عقائد الناس من أفكار زائفة ومذاهب ضالة وعقائد هدّامة تتغلغل في بلداننا السنية باسم التشيع ونشره تارة وباسم الإلحاد واللادينية أخرى.

قال المختار الشنقيطي عن سياسات السلاجقة:" وقد آتت هذه السياسات العامة التي انتهجها عدد من القادة الأتراك ثمارها، وقد كان من أهم تلك الثمار، ما سمّاه كلود كوهن"تسلحا معنويا"، للمجتمعات المسلمة، وهو ذاته ما دعاه جيفري ريغان" ولادة معنوية جديدة للعالم الإسلامي الموحّد"، لأن مظاهره كانت سنية، وغايته كانت تدعيم التراث السني وهزيمة التشيع فكريا وسياسيا". (**محمد بن مختار الشنقيطي، ص79**).

لقد استعاد الأشاعرة دورهم الريادي في الذب عن عقيدة الحق والدفاع عن السنة، وكما تصدوا بشجاعة وبسالة للمعتزلة في مرحلة تاريخية استدعت ذلك، ها هم اليوم يجابهون الخطر الشيعي بجهد منظّم وعمل علمي محكم وإخلاص منقطع النظير، فليت الذين يزايدون عليهم في إتباع السنة كان لهم عشر معشارهم في الدفاع عنها، وليتهم يعدلون معهم على الشنآن، قال ابن تيمية :" وإن في كلامهم (الأشاعرة)من الأدلة الصحيحة وموافقة السنة ما لا يوجد في كلام عامة الطوائف، فإنهم أقرب طوائف أهل الكلام إلى السنة والجماعة والحديث، وهم يعدون من أهل السنة والجماعة عند النظر إلى مثل المعتزلة والرافضة وغيرهم، بل هم أهل السنة والجماعة في البلاد التي يكون أهل البدع فيها هم المعتزلة والرافضة ونحوهم." (**ابن تيمية، بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية، 1426هـ، ج3، ص538**).

اجتمع في المدارس النظامية ألمع العلماء الأعلام كإمام الحرمين أبي المعالي الجويني، وحجة الإسلام أبو حامد الغزالي وأبو اسحاق الشيرازي... وغيرهم كثير، ونتاجها العلمي نبع ثر يأبى

الحصر، ولعل كتاب " فضائح الباطنية" لحجة الإسلام أبي حامد الغزالي أو المستظهري "يأتي في قمته ألّفه بتكليف من الخليفة المستظهر عام 487هـ. يظهر فضائح الباطنية وفضائعهم، وحكم الشرع فيهم ومدى خروجهم عنه ومباينتهم له. وأن مذهبهم ظاهره الرفض وباطنه الكفر المحض.

أسهمت هذه المدرسة في إعادة دور منهج السنة في حياة الأمة بقوة، وكان من أبرز آثارها أيضا تقليص النفوذ الشيعي، .. وقد مهدت المدارس النظامية بتراثها ورجالها وعلمائها السبيل ويسرته أمام نور الدين زنكي والأيوبيين كي يكملوا المسيرة التي من أجلها أنشئت النظاميات، وتتمثل في العمل على سيادة الإسلام الصحيح، خاصة في المناطق التي كانت موطنا لنفوذ الشيعة. (**ينظر: الصلابي، دولة السلاجقة، ص293**) وهو موضوعنا الذي نتناوله في العنصر الموالي.

الفرع الثاني: الدولة الأيوبية والمذهب الأشعري.

مُكّن للأشاعرة في دولة نور الدين زنكي(541هـ، 570) في الشام، إذ كانت ثقته فيهم كبيرة، ومنحت لهم المناصب العليا في القضاء والإدارة، إذ كان المعوّل على خريجي المدارس النظامية وأهليتهم للرد على الشيعة الامامية ودحض شبههم، ولذلك انتدبهم في البيئات التي كثر فيها التشيع الإمامي كحلب، وبالتالي نالوا في دولته كبير الحظوة، ومرموق المكانة، فحظي مذهبهم بفرصة ذهبية للاستقرار والانتشار، كيف لا ؟ والسلطان تعويله عليهم في الإدارة والفتيا والقضاء، نظرا لتكوينهم العالي، وثقافتهم الكلامية الفذة، والتي أسهمت أيما إسهام في حصار الفكر الشيعي وكسره، وإعادة مناطق عديدة إلى الحاضرة السنية بعدما كانت من ضحايا المد الرافضي. (**مغزاوي مصطفى، العدد2011، ص30**)

وفي مصر اهتم صلاح الدين الأيوبي بالمحافظة على أصول العقيدة الإسلامية على مذهب أهل السنة ونهج الأيوبيون نهج المذهب الأشعري وحرصوا على محاربة أي انحراف عنها، و القضاء على مظاهره، وكان معظم الأيوبيين علماء بأصول هذه العقيدة،(**الصلابي، صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية،2008م، ص253**) يقول بن شداد عن صلاح الدين:" وكان رضي الله عنه حسن العقيدة، كثير الذكر لله تعالى وقد أخذ عقيدته عن الدليل بواسطة البحث مع مشايخ العلم وأكابر الفقهاء،... فتحصل من ذلك سلامة عقيدته عن كدر التشبيه، غير مارق سهم النظر فيها إلى التعطيل والتمويه... وكان قد جمع له الشيخ قطب الدين النيسابوري عقيدة تجمع ما يحتاج إليه في هذا الباب، وكان من شدة حرصه عليها يعلّمها الصغار

من أولاده، حتى ترسخ في أذهانهم في الصغر ورأيته وهو يأخذها عليهم وهم يلقونها من حفظهم بين يديه." (**ابن شداد، 1994م، ص33**)، وقد ورد في الأعلام للزركلي في ترجمة الفقيه قطب الدين أبو المعالي ما يلي:" اتصل بالسلطان صلاح الدين الأيوبي وصنّف له عقيدة (على المذهب الأشعري) كان السلطان يقرئها أولاده الصغار."(**ينظر: الزركلي، 2002م، ج7، ص220**).

" ولما ملك السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ديار مصر كان هو وقاضيه ..على هذا المذهب، قد نشآ عليه منذ كانا في خدمة السلطان الملك العادل نور الدين محمود...فلذلك عقدوا الخناصر وشدوا البنان على مذهب الأشعري، وحملوا في أيام دولتهم كافة الناس على التزامه، ". (**المقريزي، ج2، ص358**).

بدأ صلاح الدين حركة الإصلاح السني في مصر حتى قبل سقوط الدولة الفاطمية، وقد أرسى دعائم ثورة ثقافية شاملة أرادت أن تجتث التراث الفاطمي من جذوره، فأسست المدارس وتنافس الأمراء في بنائها والعناية بها، في حركية دءوب لا تكل ولا تمل، واستقدم العلماء من كل حدب وصوب، لتتحول مصر من طاردة لهم ومنكلة بهم زمن الفاطميين، إلى حاضنة لهم ومحافظة عليهم زمن الأيوبيين، ولئن كان المذهب الشافعي هو مذهب الدولة الرسمي فقها، فلقد أتيحت لبقية المذاهب الفقهية حرية الوجود والنشاط بتسامح عزّ نظيره، " وإن تكن فكرة إنشاء المدارس السنية مستوردة من الشام على غرار ما فعله نور الدين فيها من إنشاء مدارس شبيهة بمناهجها وموضوعات تدريسها بالمدرسة النظامية ببغداد، فإن تمويل هذه المدارس واختيار المدرسين فيها كان ضمن مسؤوليات القاضي الفاضل". (**الصلابي، صلاح الدين الأيوبي، ص 298**)، هذا الأخير لعب دورا مهما في الدولة الأيوبية مثل الدور الذي لعبه نظام الملك في دولة السلاجقة. قال المقريزي :" تعاضد (صلاح الدين)، والقاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني رحمه الله، على إزالة الدولة الفاطمية، وعزل قضاة الشيعة وبنى بمدينة مصر مدرسة للفقهاء المالكية ومدرسة للفقهاء الشافعية... ولم يزل يدأب في إزالة الدولة حتى تم له ذلك، وخطب لخليفة بغداد المستنصر بأمر الله أبي محمد الحسن العباسي." (**المقريزي، ج2، ص233**)

وبذلك انتشر مذهب الأشاعرة في ربوع العالم الإسلامي وساد وتمادى الحال على ذلك جميع أيام الملوك من بني أيوب ثم في أيام مواليهم من الملوك الترك. (**المقريزي، ج2، ص358**).

المطلب الثاني: المذهب الأشعري والسلطة السياسية في المغرب العربي

الفرع الأول: المرابطون والمذهب الاشعري

تدل مختلف الأدبيات التي أرخت للمذهب الأشعري في الغرب الإسلامي، أن المذهب قد عرف في مراحله الأولى تمثلات فردية للمذهب لرجالات اعتنقوا العقيدة الأشعرية، والتزموا بمبادئها وأفكارها، إذ شهدت الفترة الممتدة من وفاة أبي الحسن الأشعري (ت. 324 هـ) إلى بداية القرن السادس الهجري بروز نخبة من المفكرين المغاربة تشبعوا بالفكر الأشعري، واستقوه من ينابيعها الأولى قبل عودتهم إلى المغرب. وإذا كان المرابطون لم يتبنوا المذهب الأشعري مذهبا رسميا للدولة، مما ضيق من أفق انتشار هذا المذهب في الأوساط العامة، لاعتبارات سياسية وتاريخية آنية، تمثلت على الخصوص في تبني هذه الدولة للعقيدة السلفية، فإن ذات الأسباب . أعني الظرفية السياسية والتاريخية . ستكون وراء تشبث الموحدين بالعقيدة الأشعرية ومحاولة تثبيتها وجعلها مذهبارسميا للدولة الموحدية. (**عبد الغني حروز، 2020، ص77**).

لقد عرف المغرب خلال هذا العصر تيارين مالكيين متمايزين، أحدهما يتمثل في التيار المالكي السلفي الذي ... وهو التيار الذي كان منحازا إلى المرابطين. التيار الثاني هو التيار المالكي الأشعري الأصولي الذي ظل متوثبا للتواصل مع مستجدات الفكر الإسلامي في المشرق، كما كان منفتحا على التصوف، وخير من كان يمثل هذا التيار في العصر المرابطي أبو بكر المرادي الحضرمي وأبو بكر بن العربي المعافري والقاضي عياض ...

أصبحت السيادة في العصر المرابطي للتيار السلفي لمساندته للسلطة، واستطاع أن يفرض توجهه، ودليل ذلك قول المراكشي الذي تمت الإشارة إليه: «دان أهل ذلك الزمان بتكفير من ظهر منه الخوض في شيء من علوم الكلام..... وتوعد من وجد عنده شيء من كتبه». يبين هذا النص درجة الحدة التي بلغها رفض علم الكلام عند فقهاء المذهب المالكي المحيطين بأمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين، واستغلالهم القرب منه لإقناعه بموقفهم، وتحويله بالتالي إلى موقف رسمي تتبناه الدولة المرابطية وتنشره وتدافع عنه، فظهر الموقف العدائي من الأشعرية بشكل رسمي جماعي لدى الفقهاء ابتداء من عهد هذا الأمير الذي عرف عنه ميله الشديد إليهم.(**عبد الغني حروز 2020، ص71**).

لكن رغم الخلاف المستعصي بين التوجه العقدي الرسمي للمرابطين وخلفية بعض العلماء الأشاعرة، إلا أن الأخيرين ساندوها ووقفوا إلى جانبها في مراحل تاريخية مختلفة تغليبا للمصلحة العامة وتجردا من الإخلاد لحظوظ النفس تذكيها الخلافات بينهم وبينها" فأبو عمران الفاسي أعلن الفكرة وتحرك لتأسيس المشروع، وأبو الوليد الباجي لعب دورا في التمهيد للجهاد المرابطي في الأندلس، وأبو حاد الغزالي أضفى المشروعية الدينية والتزكية الفقهية لتوسع المرابطين على حساب أمراء الطوائف في الأندلس، ...أما أبو بكر بن العربي والقاضي عياض فقد ناضلا من أجل شرعية السلطة المرابطية.(**توفيق مزاري عبد الصمد، ص154**)

الفرع الثاني: الموحدون والمذهب الأشعري.

قال العلامة ابن خلدون:" ... وجاء المهدي(ابن تومرت) على إثرهم (المرابطين) داعيا إلى الحق آخذا بمذاهب الأشعرية ناعيا على أهل المغرب عدولهم عنها إلى تقليد السلف في ترك التأويل لظواهر الشريعة وما يؤول إليه ذلك من التجسيم كما هو معروف في مذهب الأشعرية وسمى أتباعه الموحدين تعريضا بذلك النكير". (**ابن خلدون،1988م، ج1، ص286**)

انتقلت الأشعرية في المغرب الإسلامي من طور الدعوة إلى طور الدولة بتأسيس المهدي بن تومرت دولة الموحدين على أنقاض دولة المرابطين التي كانت ذات توجه سلفي أثري تأبى التأويل وعلم الكلام، وقد نبز المرابطين ونبذهم بأنهم انحرفوا عن عقيدة التوحيد وأنهم مجسّمة كفار حلال دماؤهم وأموالهم . فألّب الرعية عليهم وجعل لدعوته السياسية شرعية عقدية، إذ من يدين بالطاعة للمرابطين يوافقهم على الكفر، والواجب معاملته معاملة الكفار، والموحدون يجاهدون الكفار بالسنان واللسان" فاجتمعت للموحدين قوتان دافعتان: هما الروح المعنوية العالية والدافع المادي، فانطلقوا كالإعصار يحطمون أعداءهم وينشرون مبادئهم. (**علي الصلابي، ص50**).

لقد وظف ابن تومرت المدارس الكلامية في العقائد لخدمة أهدافه السياسية ،وقد استعمل الموحدون القوة في فرض عقائدهم المختلطة على الشمال الإفريقي واقتدوا بالمعتزلة في زمن المأمون العباسي في فرضهم على الناس عقائدهم تحت شعار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" (**علي الصلابي، ص49-51**).

لكن من التجني القول بأن دعوة المهدي بن تومرت أشعرية خالصة، إذ قد تأثرت بآراء كثير

من المذاهب، فهي ليست أشعرية بحتة ،و ليست معتزلية تقوم على الأدلة العقلية وحدها، وليست خارجية كما ظنها علماء المرابطون، وهي أيضا ليست رافضية في كل اتجاهاتها، بل هي مزيج مضطرب". (**عبد الله علام، ص 151.**) قال عنه ابن خلدون:" وكان يرى رأي أهل البيت في الإمام المعصوم وأنه لا بد منه في كل زمان يحفظ بوجوده نظام هذا العالم فسمي بالإمام لما قلناه أولا من مذهب الشيعة في ألقاب خلفائهم، وأردف بالمعصوم إشارة إلى مذهبه في عصمة الإمام وتنزه عند اتّباعه عن أمير المؤمنين". (**ابن خلدون، ج1، ص286**).

ومن التجني كذلك الجزم بأن المذهب الأشعري لم يعرفه المغرب الإسلامي إلا مع دولة الموحدين ومؤسسها المهدي بن تومرت،" فالمغرب بمختلف مناطقه كان له عهد بالمذهب الأشعري قبل القرن السادس، إلا أن حضور هذا المذهب به لم يتعد استيعابه والعلم به من قبل جمع من العلماء، واعتناقه والتحمس له من قبل البعض منهم، ولم يكن له حظ من الانتشار والعموم بحيث يصبح معتنق العامة من الناس، عليه تجري أذهانهم في التصور العقدي، وبه تنطق ألسنتهم وأقلامهم في أقوالهم ومؤلفاتهم." إلا مع ظهور المهدي بن تومرت ودولة الموحدين،(ينظر:**عبد المجيد النجار،1983م، ص431–440**)

مع التنبه إلى أن دعوة المهدي إلى الأشعرية لم تكن دعوة لها كمذهب مستقل، وإنما هي دعوة تضمنتها دعوته إلى مذهبه المتكامل في العقيدة، فكانت بالقصد الأول لا الثاني. (**عبد المجيد النجار، ص441**).

ومما أسهم في انتشار الآراء الأشعرية للمهدي واندماجها في تيار الأشعرية العام، " ما كان في مؤلفاته من استقلالية لآرائه ذات الصبغة المهدوية عن آرائه ذات الصبغة الأشعرية، فالأولى ضمّنها كتابه الإمامة، ولم يوردها في سائر مؤلفاته إلا أن تكون اشارات قليلة، بينما جاءت بعض الرسائل ممحضة للآراء الأشعرية مثل المرشدة". (**عبد المجيد النجار، ص 446**) هذه الأخيرة أقبل عليها العلماء شرحا وبسطا وتعليما، والعامة تعلما وفهما واستيعابا حتى كان لها الدور الأبرز واليد الطولى في نشر الأشعرية كمذهب في عموم بلاد المغرب، بل وتعدى أثرها إلى بلاد المشرق، وقد انقسم علماؤه بين مادح لها وقادح فيها حسب التوجه العقدي والميل الفكري و(موقف العالم من صاحبها، ولعل أعنف نقد وجّه لها ما كان من شيخ الإسلام بن تيمية (**ابن تيمية، مجموع الفتاوى، 1995م، ج1،ص 476–492**)، استمرارا لصراع الأشاعرة والحنابلة. وبقي

تأثيرها حتى بعد سقوط دولة الموحدين . لتكون عقيدة المرشدة من أهم لبنات إعلاء صرح المذهب الأشعري في المغرب الإسلامي واستقراره واستمراره. وليبقى مذهب المغرب الغالب كما قال بن عاشر في متنه :" في عقد الأشعري وفقه مالك وفي طريقة الجنيد السالك"، فعموم المغاربة أشعريون عقيدة، مالكيون فقها، جنيديون سلوكا.

ولئن أسهم بن تومرت بدولة الموحدين في انتشار المذهب الأشعري في المغرب، غير أن هذا الجانب السياسي لم يكن حاسما في بقائه واستمراره ولا أدل على ذلك من أن آراء بن تومرت غير الأشعرية المتعلقة بالإمامة والعصمة لم يكتب لها البقاء ولم تنل من المغاربة رضى أو قبولا حتى ابّان حياته، إضافة إلى أن دولة الموحدين فنيت واندرست وعقيدة الأشاعرة انغمست في النفوس وانغرست.

خاتمة:

يتبين من كل ما ذكر، أن المذاهب العقدية بدأت مواقف سياسية وتحوّلت إلى فرق عقدية، فدول تنتصر لرأي عقدي دون آخر، فآراء تأفل الدول وتبقى وتموت الممالك وتحيى، فتأثير السياسي في العقدي وتأثره به ظاهرة عامة في الفرق الإسلامية جميعها وليست أمرا يختص بالمذهب الأشعري دون سواه، لذلك الإرجاف من المناوئين له بأن سبب انتشاره السيف لا البرهان والقهر لا القناعة، ليس دقيقا من جهة أننا أمام ظاهرة عامة شملت جميع المذاهب العقدية ،فلا خصوصية للأشاعرة هنا، ومن جهة أخرى الفكر الصحيح فيه بذور البقاء وجينات الخلود، وكذلك الفكر الأشعري لأنه يزاوج بين النقل والعقل والرأي والسمع ،وهو وسط بين المادة والروح، ولم يدّع أصحابه له العصمة، إذ هو اجتهاد فيه صواب وخطأ، وتأثير وتأثر ، والأشاعرة اضطهدتهم دول، وانتصرت لهم أخرى، وقد كان لهم أكبر الفضل وأعظم الأثر في نصرة السنة وصدّ الشيعة، ولا أدلّ على ذلك من دورهم المحوري في هزيمة البويهيين الشيعة في فارس والعراق والفاطميين الإسماعيليين في مصر والشام، ولولا جهودهم الجبّارة وجهادهم المستميت لما قامت لأهل السنة قائمة، وبفضلهم تحصنت جبهة الإسلام الداخلية فكان النصر حليفه على أعدائه الخارجيين في الحروب الصليبية فتم استعادة أراضيه السليبة وفي مقدمتها القدس الشريف، إذ بصلاح الدين تصلح الدنيا، وما أشبه اليوم بالبارحة.

قائمة المصادر والمراجع

1. ابن تيمية (تقي الدين أبو العباس أحمد)، 1995م ،مجموع الفتاوى، تحقيق عبد الرحمان بن محمد بن قاسم،، المدينة المنورة، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.
2. ابن تيمية (تقي الدين أبو العباس أحمد)،1426هـ، بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.
3. ابن خلدون (عبد الرحمان بن محمد بن محمد ولي الدين الحضرمي الاشبيلي)، 1988م ،ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق : خليل شحاذة، بيروت، دار الفكر، ط1408،2هـ.
4. ابن شداد(بهاء الدين يوسف بن رافع 1415هـ،النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط2.
5. أبو حامد الغزالي،1996م، التبر المسبوك في نصيحة الملوك، تحقيق محب الدين العموري، دار الفكر.
6. أحمد أمين،2009 ،ضحى الإسلام، الجزائر، دار الأصالة.
7. سير أعلام النبلاء، الذهبي (شمس الدين أبو عبد الله محمد (ت 748هـ)، القاهرة، دار الحديث.
8. الشهرستاني (أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بم أبي بكر أحمد)، الملل والنحل، مؤسسة الحلبي.
9. الصلابي (علي محمد محمد)،2006م،دولة السلاجقة، وبروز مشروع إسلامي لمقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي.
10. الصلابي (علي محمد محمد)، 1429هـ2008م، صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير بيت المقدس، علي، بيروت، دار المعرفة.
11. الصلابي (علي محمد محمد)،دولة الموحدين، عمان، دار البيارق.
12. غضبان، علي حسن، 2014، البويهيون في فارس، بغداد، مكتبة عدنان– دار الرافدين.
13. محمد بن مختار الشنقيطي،2016م، أثر الحروب الصليبية على العلاقات السنية الشيعية، بيروت، الشبكة العربية للأبحاث والنشر ،ط 1,

14.المقريزي، (تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي،المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (المعروف بالخطط المقريزية، بيروت، دار صادر.

15.النجار عبد المجيد، 1403هـ، 1983م ،المهدي بن تومرت: حياته وآراؤه وثورته الفكرية والاجتماعية وأثره بالمغرب (رسالة دكتوراه)، ،ط1.

16.النشار علي سامي،نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام, دار المعارف، ط9.

المجلات

17.توفيق مزاري عبد الصمد، أثر المذهب الأشعري في الغرب الإسلامي حتى القرن السادس الهجري، مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية، المجلد 11, العدد 1, الصفحة 163-137

18.عبد الغني حروز، الحضور الأشعري زمن المرابطين(448هـ-541هـ)جدل الفقهاء والسلطة، مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية، مجلد17، عدد1، ص65-81.

مواقع الكترونية

19.بوشرى الشاقوري، العقيدة الأشعرية وحفظ الخصوصية المغربية،(2020/09/29) https:/www .Moslimonline.com،